مقدمة الكتاب

تُعد البلاغة العربية من العلوم التي لها صبغة معرفية خاصة؛ بما لها من تقاطعات مع سائر الفروع الأخرى من علوم العربية والتراث، وذلك في المسارات الثلاثة التي تنتظم فيها النظرية البلاغية، وهي: مسائل العلم وما يتعلق بها من مباحث. وتاريخ العلم وما يتعلق به من ظروف النشأة وخط التطور. وأصول العلم وما يتعلق بها من طرائق الاستدلال.

ومن ثَمَّ ستتجلى في البلاغة ثنائية مهمة كانت محل عناية هذا الكتاب وهي ثنائية (العقل والنقل)، فقد مثلت محورًا كبيرًا في هذه النظرية على نحو ناضج، فالاستدلال-مثلا- هو من الأصول المهمة التي قامت عليها تلك النظرية البلاغية في جانبي الإبداع والتأويل.

ومن ثم فإننا إذا أنعمنا النظر في المفاهيم الكلية للبلاغة بوصفها إبداعًا أدبيًّا أو تواصليًّا، وكذلك بوصفها نشاطًا ذهنيًّا يعمل على ضبط الأصول العامة للقراءة والتأويل، فسوف ندرك أن الاستدلال بنية مكونة للبلاغة القولية، وكذلك هو بنية مهمة في أصول الفكر البلاغي الذي يعمل على التفسير، والتعليل، والترجيح، والاستنباط.

فعلى المستوى الإبداعي والتأويلي مثلاً: سنجد أن قرائن التعالق، والعلاقات التركيبية، ومرجحات الدلالة، وكذلك القياس التمثيلي، وما يتعلق بمباحث التشبيه الاستدلالي وغيرها من وجوه التصوير الحجاجي، وكذلك ما يتعلق بالفكر الاستعاري الذي يعمل على إقامة علاقات ذهنية متعددة بين الأشياء، وما يتعلق كذلك ببعض مباحث البديع المعنوي الذهني: كالمذهب الكلامي، وأسلوب الحكيم، حيث تنشيط العقل الإبداعي عبر إعمال آليات الذكاء، نجد أن كل هذا وغيره يقع في النشاط الاستدلالي الإبداعي في العقل البلاغي العربي.

أما على مستوى التأصيل والمعيارية والبحث التقعيدي: فسنجد أن البلاغة العربية تقوم على بنية معرفية استدلالية لا يمكن إغفالها أو تجاوزها، حيث نجد أن هناك جوانب أصولية مفقودة في الدرس البلاغي، تحتاج إلى من يزيل عنها ما علق بها

من غبار الجمود والوقوف عند مسلمات بحثية أصبح التجديد فيها لا يتجاوز إضافة الشرح على المتن، والحاشية على الحاشية، فتوقف المسار التأصيلي فترة من الزمن، وكان الخلط قائمًا بينه وبين المسار التأريخي والتعليمي لهذا الفن

وقد أشارت بعض الأطروحات العلمية التي أصلت للبحث البياني في التراث العربي، إلى أن هذا البحث قد تنازعه مساران كبيران:

الأول: البحث في "قوانين تفسير الخطاب"، وكان الإمام الشافعي هو المنظِّر والمشرِّع لهذا المسار بما صاغه من قواعد كلية في الفهم والنظر والاستدلال.

الآخر: البحث في "شروط إنتاج الخطاب" ، وكان الجاحظ هو المؤسس لوضع التصورات النظرية لهذا المسار.

ويمكن أن نعقب على ذلك بأن النظرية البلاغية التي قدمها البلاغيون العرب قد وُجد فيها هذا المساران معًا، فنجد من البلاغيين من يبحث في (قوانين التفسير والتعليل والتأويل)، ومنهم من يبحث في (شروط الإنتاج)، لكن غلبة البحث في شروط الإنتاج -بما فرضته من هيمنة بيانية ومنطقية ومعيارية- قد حدَّت من استقلالية المسار الأول، ومن تطوير مباحثه في الدرس البلاغي عند العرب؛ فقد تداخل هذا الجانب الاستدلالي التأصيلي مع البحث في شروط إنتاج الخطاب حتى غابت معالمه، ولم تنجح الدراسات المعنية به في إقـامة قالب معرفي مستقل بأسسه ومنطلقاته وتصوراته.

وإذا أردنا أن نُصَنِّف هذا الكتاب -بناءً على هذا الطرح-، فهو يقع ضمن الدراسات الباحثة في (قوانين التفسير والتأويل)، ومن ثمَّ جاء ليجمع عدة أسس ومنطلقات مهمة، تمثل في جوهرها طبيعة البحث في (تفسير قوانين الخطاب البلاغي العربي)، كالبحث في الأحكام، والأدلة، والعلل، والترجيح، وتجليات ثنائية العقل والنقل...إلخ.

لذا فإن أهميته تنبع من العناية بتقديم الآفاق الأصولية في الفكر البلاغي؛ إذ يحاول -عبر ضبط مباحثها- التأسيس لنظرية استدلالية متكاملة في الفهم والقراءة؛ حيث إن علماء البلاغة العربية -على طول مسيرتها- لم يلتفتوا إلى هذا التأصيل

بمحاوره المشار إليها في هذا الكتاب على نحو تكاملي، وهي في الحقيقة مباحث شكلها أصول الفكر اللغوي، ثم أفاد منها علم (أصول الفقه) حين دوَّنَ علماؤه مباحثهم وهذبوها، كما أفاد منها علماءُ النحو حينما دوَّنوا (أصولَ النحو)، وكذلك الشأن إذا أردنا أن نحرر مباحث الأصول البلاغية، بحيث تنتظم في مسارها العلمي المستقل عن البحث في المسائل المعنية بتقديم الظواهر البلاغية.

لذلك يتبنى هذا المشروع الذي أقدمه مطلبًا مهمًّا وهو أن البلاغة العربية في حاجة ماسة إلى دراسة أفكارها عبر تساؤلات جديدة؛ والتنقيب عن مباحث مهملة وغير مطروقة، وبخاصة إذا وَقَر في وعينا المعرفي أن القدماء تركوا لنا كنوزًا ثمينة لم تُستثمر بعدُ على وجهها الصحيح، وهي جوانب مهجورة، لكنها تحتاج إلى مدخل علمي خاص لدراستها؛ إذ لابد أن يكون ذلك المدخل مناسبًا لنسقها ومنهجها البحثي والتحليلي، وأعتقد أن ذلك أجدى في إعادة القراءة الفاحصة والمنصفة لتاريخ البلاغة العربية ومساراتها المعرفية، وأن ذلك ربما كان أنفع لها من إقحام عناصرَ مُخالفةٍ لطبيعةِ الدرس البلاغي من حيث اختلاف النسق، وتباين الغاية والمنزع.

منهج الكتاب:

أما منهجي في هذا الكتاب فهو إعادة النظر في أصولِ البلاغة العربية من زاوية تأصيلية، والبحث عن الأسس والمنطلقات المعرفية التي شكلت الجانب الاستدلالي، والبحث في الكيفية التي بُنيت عليها قضايا التفكير البلاغي.

وسوف يعنى هذا الكتاب باستقراء المباحث التي قامت عليها تلك النظرية؛ كي أجمعَ شتاتَها، وأعيد صياغتَها وتشكيلها؛ لتمارسَ حقَّها المشروع في مزاحمة تلك النظريات القرائية المحدثة، التي ربما تشتغل بتحليل مستويات الخطاب البلاغي العربي من زاوية نسق تأويلي مشوش أو غير ملائم، فتأتي قراءتها واستدلالها أقرب إلى العبثية النقدية منها إلى الانضباط المعرفي.

إننا بحاجة إلى نظرية بلاغية متكاملة الجوانب في ضبط أصول النظر والاستدلال والاستنباط، وهي أمور تعرَّض لها الباحثون الأولون حين كتبوا علوم البلاغة

ونقحوها وطوروها على مر العصور، غير أنها لم تُجمع في قالب واحد، ولم يُنظر إليها بوصفها أُسسًا ومنطلقـاتٍ كليةً في التوجيه والتعليل، ومن ثمَّ فهي بحاجة إلى تحرير ودراسة وضبط.

وهذه العناصر يمكن إجمالهـا سريعًا في هذه المقدمة، ثم أترك تفصيلها لمبـاحث الكتاب. وهي على النحو الآتي:

أولاً: البحث عن المنطلقات الإجمالية في تصور الأساس المهم للنظرية البلاغية العربية وهو (تفاوت درجات الكلام)، وما يتعلق بالنظر في وسائل تعيينها، وإعادة صياغتها البحثية على نحو منهجي، وما ينبغي أن يتوافر لذلك من خصائص معيارية تحقق المزية العلمية.

ثانيًا: البحث في وجوه التأويلات العقلية التي يمكن أن تسهم في تجديد قراءة الإنتاج القولي، ومعايير تقييمه، وكثرة مائه وعطائه، وما يمكن أن يضاف إلى الخطاب القرائي من ألوان معرفية، وذلك عبر الإفادة بما قدمته المنظومة المفهومية للبلاغة في التراث العربي من أفكار عديدة.

ثالثًا: البحث في الأسس التي قام عليها تفضيل عمل على آخر، والمقاييس الكلية التي استند إليها الفكر البلاغي في التحسين والتقبيح، والحكم بالجودة والرداءة، والإتقان والقصور.

رابعًا: البحث في وجوه التماس العلل البلاغية في تحول النسق اللغوي وقيمته، واختلاف النسيج المعنوي حيثُ كسْرُ ما يتوقع من القاعدة، وما يمكن أن يستساغ منه وما لا يستساغ.

خامسًا: البحث في منطلقات تقديم معنى على معنى، واحتمالية الصحة التي توردها المعاني على النص، وقياس قوتها، وما لا يستقيم أن يتلبث به النص من معانٍ خارجية بعيدة، وكذلك ما يتعلق بطبيعة الميزان البلاغي في الترجيح.

سادسًا: البحث في الظواهر الكلية المتعلقة بثنائية (العقل والنقل)، والمتصلة باستجلاء أثرها في المباحث البلاغية، ودورها في تكوين المناهج التي كتبت بها البلاغة العربية، وطبيعة الخواص العلمية في العلوم الثلاثة، وأنظمة الاستدلال المتعلقة بالقراءة والتأويل.

من هذه المنطلقات والتصورات تتشكل مباحث هذا الكتاب، محاولاً أن يكون ذا نهج يغـاير ما سبقـه من أبحاث تدور في فلك هذا الفـرع من فروع المعـرفة الإنسانية.

لذا فإني أخوض بك –أيها القارئ الكريم– هذه المفاوز التي ربما لم تَعُجْ عليها من قبل، وهي مناطق غير معبَّدة، ولها من الاعتبارات المعرفية، والأسس الفكرية ما يجعل البحث فيها يقفز بعلم البلاغة في مكان جديد، مسترشدًا بمصابيح منيرة من الماضي البعيد، فهو جديدٌ من حيث التناول والطرح، مستلهمٌ من حيث آلية التفكير والمنهجية، أروم منه البحث عن الأحكام في الفكر البلاغي، والأساس الذي بنيت عليه، وأحاول الوصول للأدلة التي اعتمدها البلاغيون في التحسين والتقبيح منذ القرن الثالث الهجري، ومرورًا بمرحلة النضج في القرن الخامس، وانتهاءً بانتقال الدرس البلاغي إلى التقعيد في القرن السابع، وكذلك البحث في العلل، والترجيح، والعقل والنقل...إلخ، ولعل هذا يتضافر مع حركة علمية منضبطة في تحليل الخطاب وتذوقه من جهة البلاغة العربية وأصولها الاستدلالية.

ومباحث هذا الكتاب فصول مهجورة في بطون تراثنا العربي الذاخر، ذلك التراث الذي أسهم في تكوين النظريات اللغوية واللسانية الحديثة، ولا يـزال الناس – مع تتابع العصور– يُجِلُّونه ويقـدرون معطياته وقضاياه، وأزعم أننا لو أحسنَّا قراءته مرة أخرى فسيتجلى لنا من الكنوز العلمية المنضبطة الشيءُ الكثير.

والمقصد من معالجة هذه المباحث فهم طبيعة النسق الفكري الذي جعل لعلوم البلاغة مسيرةً خاصة بها، استطاعت من خلاله أن تدْرسَ طبيعة (الإعجاز البياني) في كتاب الله تعالى، وتحلل به نصوص الأدب شعرًا ونثرًا، وأن تكوِّنَ حركة ثقافية في التأويل والقراءة.

ولذا فقد قسمتُ هذا الكتاب إلى فصول تبحث في جملة الأسس والمنطلقات الخاصة بهذه النظرية، لكنها لا تعمل منفردة في القراءة والتأويل، وإلا لكانت عناصر جزئية غير متكاملة، ولندَّتْ منَّا الفكرة الداعية إلى تحقيق وحدة النظرية.

وقد جاء كتابي هذا في تمهيد وستة فصول، بحسب تلك الأسس التي قامت عليها النظرية وهي:

التمهيد، حيث يتحدث بإجمال عن نقطتين:

أ- خصوصية البلاغة العربية.

ب-أهم المؤلفات التي تتقاطع مع هذا البحث في العنوان أو في بعضه، وموقع هذا الكتاب منها.

الفصل الأول: الجانب المفقود في الدرس البلاغي العربي.

الفصل الثاني: الأحكام.

الفصل الثالث: الأدلة.

الفصل الرابع: العلل.

الفصل الخامس: الترجيح.

الفصل السادس: العقل والنقل.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت.

المؤلف

جازان- المملكة العربية السعودية

رمضان ١٤٤٣هـ

أبريل ٢٠٢٢ م